

تاريخ مدينة الأبيض

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك
كلية العلوم الإنسانية - جامعة بحري

د. عبد العزيز محمد موسى إسحق

المستخلص:

هذا البحث نتاج لزيارة ميدانية أكاديمية إلى مدينة الأبيض والبحث في أضابير دار الوثائق القومية ومكتبة جامعة القاهرة في جمهورية مصر والاطلاع على بعض الرسائل الجامعية. ويتناول هذا البحث مدينة الأبيض حاضرة إقليم كردفان من عدة زوايا أساسية السكان والموقع وسبب التسمية والمناخ وطرق النقل والمواصلات والأسواق وغيرها من الموضوعات المرتبطة بهذه المدينة. ويلاحظ المطلع كثرة الصور عن الأبيض وهي من تصوير الباحث.

الكلمات المفتاحية: الأبيض، شيكان، المياه، النشاط الاقتصادي.

Abstract:

This research is the result of an academic field visit to the city of El-Obeid, research in the files of the National Archives and Cairo University Library in the Republic of Egypt, and review of some university theses. This research deals with the city of El-Obeid, the capital of the Kordofan region, from several basic angles: population, location, reason for its name, climate, modes of transport, transportation, markets, and other issues related to this city. The informant notes the large number of photos of Al-Abyad, which are from the researcher's photo.

Keywords: white, Shikan, water, economic activity.

المقدمة:

تعود نشأة المدن السودانية إلى الفترة الحديثة ، خلال القرن الثامن والتاسع عشر الميلادي وما تلاه، تطور معظمها من قري صغيرة إلى ان اصلحت مدن بالمفهوم السائد. اما بالنسبة لمدينة الابيض ليس هناك تاريخ محدد لنشأتها ولكن كانت هناك مجموعة قرى قريبة من بعضها في منخفض ساعد على جمع المياه حولها ونمو الأشجار.

سبب تسمية الأبيض يرجع إلى الرواية التي تقول بأنه كانت هناك امرأة اسمها (غفورة) تسكن في وسط المنخفض، وكانت تملك حمارة أبيض، ولم تملك شيئاً تقتات به سوى إحسان المسافرين وعندما يقتربون منها (أبيض غفورة لا بلاد لا ممطورة) إشارة إلى فقر المنطقة وجدها.⁽¹⁾

ونفس هذه الرواية سبب تسمية المدينة وتسرد بطرق مختلفة، إذ إن سكان القرى المجاورة لمدينة الأبيض الحالية كانوا بماشيتهم ودوابهم العنان بحثاً عن الكلأ الذي ينبت في الفضاء الممتد حول هذه القرى وحول المستنقعات والمنخفضات التي يتجمع فيها الماء الأسن من بقايا موسم الأمطار، وكانت تسكن في إحدى هذه القرى امرأة عجوز تمتلك حمارة أبيض تطلقه بحثاً عن قوته وشربه في تلك المنطقة، وفي إحدى المرات طال غياب حمارها، وعند رجوعه لاحظت بأن أرجل حمارها ملطخة بالطين المزوج بالعشب الأخضر وتبعث المرأة حمارها إلى أن وصل المنطقة التي كان بها ماء

وتنبت على أطرافه الأشجار الكثيفة وعند رجوعها إلى قريتها أنبأت سكانها بما رآته، فرحل سكان القرية إلى ذلك الموقع الجديد وأقاموا فيه أكوأهم وكان مولد مدينة الأبيض الحالية التي أخذت اسمها من لون الحمار الأبيض، ثم تبعهم بقية سكان القرى المجاورة وكانوا يقولون: (نحن ذاهبون لنسكن في مورد الحمار الأبيض⁽²⁾). وهناك رواية أخرى تشير إلى أن اسم المدينة يرجع إلى اسم المجرى المائي الذي يقع جنوب المدينة المسمى بالخور الأبيض، إلا أن الرواية الأولى أكثر تداولاً بين الناس⁽³⁾.

تقع مدينة الأبيض على دائرة 11° / 13° شمالاً وخط الطول 14° / 30° شرقاً، ويصل ارتفاعها إلى 1900 قدم فوق مستوى سطح البحر، وتبعد الأبيض بحوالي 292 ميلاً جنوب غربي العاصمة الخرطوم و 446 ميلاً شرق مدينة الفاشر، وتحيط بها معظم مدن كردفان (ام روبة، الرهد، ابو زيد، النهود، رارا، الدلنج، سودري، كادقلي، ورشاد)⁽⁴⁾.

إن احتلال مدينة الأبيض لهذا الموقع المهم جعل منها مركزاً تتجمع فيه حاصلات المنطقة النقدية ومعظم ثروتها الحيوانية، كما كان ربطها بالسكك الحديدية في سنة 1912 والذي كان يعتبر الخط الوحيد الممتد إلى غرب السودان، وتمثل الأبيض نهايته حتى 1958م قبل مده إلى نيالا، وكان للسكك الحديدية أثرها في ارتفاع أسهم مدينة الأبيض التي أصبحت المركز التجاري الذي يفرغ فيه السلع الواردة إليها ومنه تشحن الصادرات هذا بالإضافة إلى وقوعها في منخفض كبير تكثر فيه الخيران والوديان، وهو عبارة عن أرض سهلية توالي انخفاضها تدريجياً كلما اتجهنا شمالاً ويظهر ذلك بوضوح في وسط المدينة وعند منطقة السوق الكبير توجد منخفضات ذات رمال خفيفة تتجمع فيها مياه الأمطار، المنطقة الشرقية من المدينة ذات تربة رملية خفيفة ومتماسكة ومنتظمة السطح تنبت عليها أعشاب السافانا القصيرة وتمتد طولاً إلى أن تصل إلى منطقة تقطعها الخيران والوديان العميقة وتخترق المدينة بطولها من الجنوب إلى الشمال المجاري المائية والخيران الموسمية. وفي شرق المدينة وجنوبها توجد بعض التلال القليلة الارتفاع شمال شرق المدينة وجنوبها الكتبان الرملية المتحركة في غربها، وهي طولية الشكل تتكون من تلال مفككة معرضة للتعرية بواسطة الرياح ويتراوح ارتفاعها ما بين 5 و 25 قدماً⁽⁵⁾.

المناخ:

تقع مدينة الأبيض في الإقليم شبه الجاف، وهو أكثر الأقاليم نشاطاً في الزراعة والرعي، ويتركز سقوط المطر فيه دائماً في أربعة أشهر من يوليو إلى أكتوبر ويقل تساقط الأمطار كلما اتجهنا جنوباً. الجدول التالي يوضح المتوسط الشهري والسنوي للأمطار في مدينة الأبيض:

الشهر	المتوسط الشهري للأمطار
يناير	-
فبراير	-
مارس	أثر
إبريل	3
مايو	20
يونيو	33
يوليو	121
أغسطس	145
سبتمبر	77
أكتوبر	19
نوفمبر	-
ديسمبر	-
المتوسط السنوي	418

ويوضح الجدول التالي توزيع درجات الحرارة في مدينة الأبيض على مدار السنة:

الشهور	يناير	فبراير	مارس	أبريل	مايو	يونيو	يوليو	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر
متوسط درجة الحرارة القصوى (فهرنهايت)	87	91	91	102	102	99	92	90	94	98	94	89
أعلى درجة حرارة	103	106	109	111	113	109	104	100	104	104	102	101
أدنى درجة حرارة	71	72	79	81	81	87	71	76	78	85	82	73
متوسط درجة الحرارة الدنيا	55	56	63	69	74	75	73	71	71	71	63	57
أعلى درجة الحرارة الدنيا	-	71	84	84	86	83	83	80	77	79	79	67
أدنى درجة الحرارة الدنيا	39	36	43	55	60	63	61	64	63	60	50	44
متوسط نسبة الرطوبة (%)	32	26	21	24	37	49	67	75	67	45	30	31

مصادر المياه:

ارتبطت نشأة المدينة الأولى بوجود المياه في ذلك الموضع، حتى أن اسم المدينة ارتبط بقصة تناقلتها الأجيال تلقى كثيرًا من الضوء على هذه النشأة وتأثير البيئة الطبيعية في إختيار الموقع الحالي (أشرنا إليها سابقًا) وتعتمد مدينة الأبيض على المياه الجوية بشكل أساسي نسبة لعدم وجود أنهار، كما يتم الاعتماد على مياه الأمطار التي يتم تخزينها، حيث يبدأ فصل الخريف في يوليو ويستمر حتى أكتوبر، يسجل شهر يوليو 113 مم ويصل قمته في أغسطس حيث يسجل 143 مم، وهذه الزيادة مرتبطة بالفترة التي تسيطر فيها الرياح الرطبة على المدينة، ثم تبدأ الأمطار في التناقص التدريجي ويسجل شهر سبتمبر 68 مم وأكتوبر 19 مم إلى أن يتلاشى تمامًا في بداية شهر نوفمبر. يتميز سقوط الأمطار في مدينة الأبيض بظاهرة الفجائية حيث تسقط الأمطار فجأة مصحوبة بالزوابع الرعدية والأعاصير الترابية (الهبوب)، والتي يصل متوسط سرعتها إلى 32 كلم وتنخفض الرؤية إلى 200 متر، وتخف هذه الحدة كلما زادت نسبة التساقط خاصة في يوليو وأغسطس بعد أن ترتوي التربة وتنبت فيها الحشائش والأعشاب، وسقوط الأمطار في فصل الصيف هو السبب في ضياع نسبة عالية منه بالتبخر والتسرب في تربة المدينة الرملية. (6) وخلال المسح الميداني الذي قام به الباحثون في مدينة الأبيض - بارا - الرهد - الدلنج - الدبيبات في الفترة من 21 - 25 يناير 2017م وزاروا مجموعة من الخزانات الخاصة بالمياه والتي صممت على أسس هندسية حديثة وعلى مستوى عالٍ من الجودة والسعة التخزينية. (انظر الصورة المرفقة)

تخترق المدينة بطولها من الجنوب إلى الشمال المجاري المائية والخيران الموسمية، وأهم خورين هما خور القبة الغربي وخور القبة الشرقي، ويمر الأول جنوب المدينة وشرق مقابر دليل ويسير شمالاً حتى يصل غرب حي القبة وغرب فولة عبيد، ثم منطقة الآبار إلى أن يصل فولة الجنزارة شمال المدينة ويصب فيه مياهه، أما الخور الثاني فيأتي من جنوب المدينة ماراً شرق حي القبة ويلتقي مع الخور الأول عند فولة الجنزارة، ثم يواصل سيره مخترقاً غابة الجنزارة شمال المدينة متوغلاً في منطقة البديرية، وتبدأ مياهه في الانحسار في منطقة أبو ضريس. تغطي مجرى الخورين رسوبيات من الطين والرمل والحصي، وتوجد في تفاوت طبقي منتظم يصل سمكه أحياناً إلى 50 قدمًا، ويستفيد السكان من هذين الخورين في حفر الآبار للحصول على الماء. (7)

وأيضًا يتم الاستفادة من مياه الخريف بتخزينها في أشجار التبليدي
(انظر الصورة المرفقة)



النقل والمواصلات:

توجد شبكة مواصلات داخلية تربط مدينة الأبيض بالأحياء والمحليات المختلفة داخل الأبيض الكبرى وما جاورها من القرى والمدن. كما ترتبط الأبيض بشبكة كثيفة من الطرق تربط المدن بكردفان الكبرى وبقية أنحاء السودان، ومن أهم هذه الطرق:

1. طريق نيالا - النهود - الخوي ثم الأبيض والرهـد وأم روابـة وتندلتي، ثم يلتحم بالمحور النيلـي عند مدينة كوستي.
2. طريق الأبيض - بارا - أم درمان.
3. طريق تاريخي كانت تلتقي فيه التجارة القادمة من أقصى الشمال من مصر وأقاليم البحر المتوسط في مدينة الأبيض عبر درب الأربعين، وآخر يأتي من أقصى الجنوب من الأرض الغابية.
4. طريق يبدأ من حواف شبه الصحراء مارًا بالجنينة والفاشر وأم كدادة وارا ثم الأبيض.
5. طريق الأبيض - الدلنج.
6. طريق الأبيض - الخوي - النهود - نيالا.
7. طريق الأبيض - أبو زبد - رجل الفولة - أبيي.
8. طريق الأبيض - سودري.
9. طريق الأبيض - أبو زبد - بابنوسة - الضعين.⁽⁸⁾

وأيضًا من خدمات النقل الموجودة داخل مدينة الأبيض، نجد القطار الذي وصل رأس الخط الحديدي إليها في 1911م، وكان وصول الخط الحديدي يعني ارتباط كردفان وأسواقها الرئيسية بكل من حلفا الميناء النهري وبورتسودان الميناء البحري. ويمتد الخط مسافة 689 كلم، وهي المسافة بين الخرطوم والأبيض.⁽⁹⁾ وفي مجال النقل الجوي يوجد مطار في مدينة الأبيض يعمل على نقل الركاب خاصة في السفريات الداخلية. ولكن من الملاحظ أن حركة الطيران قليلة جدًا، وربما يعود ذلك لوفرة البصات السفرية ووقوع الأبيض في منطقة وسطى مما جعل الحركة إليها ميسرة.

السكان:

أهم ما يلاحظه الزائر إلى مدينة الأبيض العفوية التي يتعامل بها سكان المدينة مع الغرباء والاستعداد الدائم للرد على استفساراتهم دون ضيق

أو ملل، بالإضافة للثقافة العالية التي يتمتعون بها في جميع دروب المعرفة. وقد جرت أول دراسة لسكان مدينة الأبيض في العام 1965/64م من خلال المسح الميداني، وتم تقسيمها إلى أربعة أقسام كل قسم يضم عددًا من أحيائها. الجدول التالي يوضح توزيع السكان على الأحياء:

القسم أو المنطقة	الأحياء التي يتضمنها القسم	مجموع السكان بالنسمة	
		1973	1965/64
وسط المدينة	الدرجة الثالثة، حي الفلاتة، الربع الثاني شرق وغرب المدينة، حي السودنة، المنطقة الصناعية، منطقة السوق، الميدان الكبير، المنازل الحكومية.	16.379	13.678
شرق المدينة	المنطقة العسكرية غرب السكك الحديدية، منطقة السجن الجديد، الدرجة الثالثة الجديدة، البترول، حلة أمير، منازل السكك الحديدية، قطاطي أمير.	15.2347	5.892
غرب المدينة	حي المعاصر، الجلاء، الشويحات، القبة، مساكن الشرطة الغربية.	14.177	10.125
شمال وجنوب غرب المدينة	حلة فلاتة، الناظر، فلسطين، ود إلياس، زندية، اليوم النصر، جبرونا، الرديف.	43.670	32.865
المجموع الكلي		89.573	62.560

نسبة الزيادة سنة 1973م عن 1965م حوالي 28.013 نسمة.

كما يوضح الجدول التالي توزيع سكان الأبيض خلال الفترة 1983م / 1993م:

السنة	العدد بالنسمة
1983م	141.528
1993م	229.425

ويوضح الجدول التالي عدد سكان الأبيض في آخر تعداد رسمي للسودان في العام 2008م حسب النمط المعيشي:

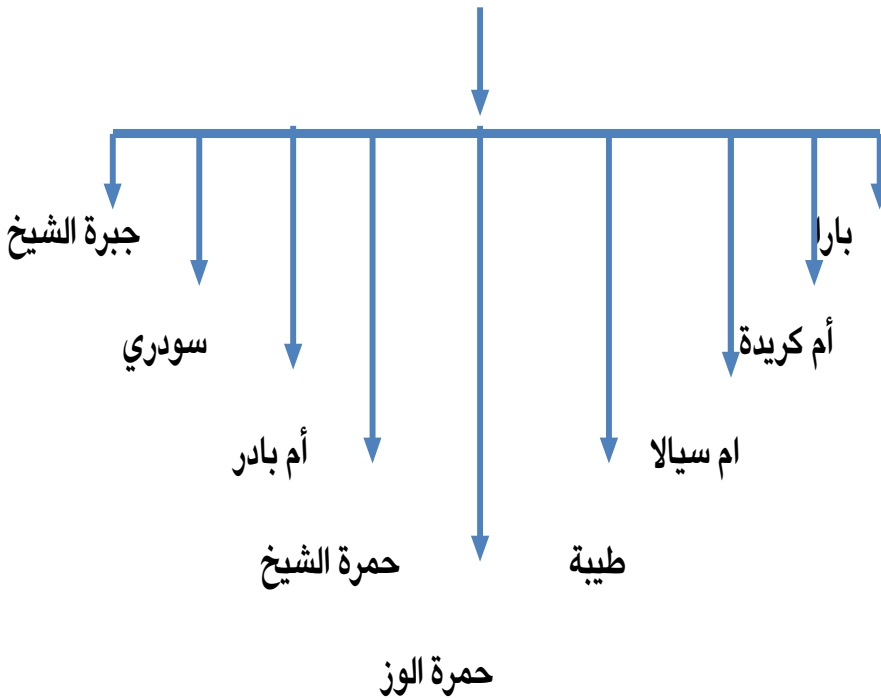
الجملة	ذكور	إناث
345.126	174.365	170.761

هناك ملاحظة لا بدّ من الإشارة إليها وقد تكررت كثيراً، بخصوص الأحياء وأسماء القبائل القاطنة فيها، حيث يرد اسم حي فلاتة وهو بالأصح حي الهوسا، يوجد في الأبيض حي مترمي الأطراف قمت بزيارته خلال المسح الميداني لهذه المدينة. يشمل مصطلح الهوسا كل من تحدث هذه اللغة بصرف النظر عن جذورهم العرقية أو أماكن إقامتهم.(12)

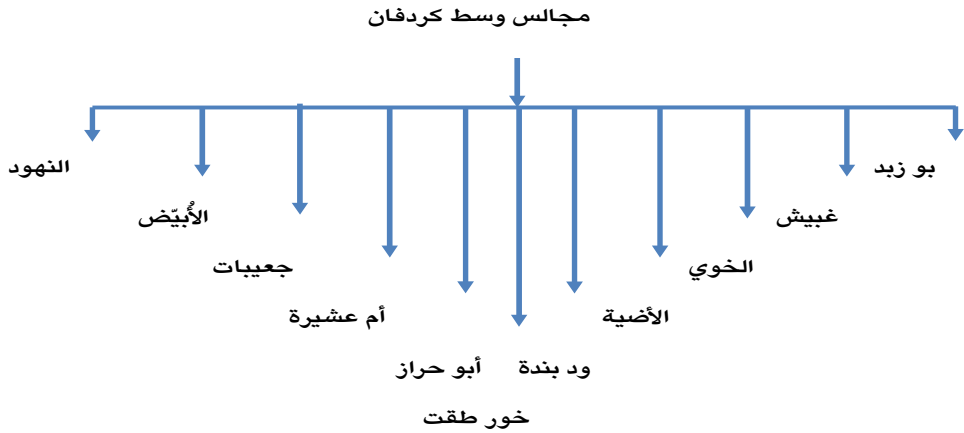
التطور الإداري:

عندما تم تقسيم مديرية كردفان وفقاً لقانون الحكم الشعبي الإقليمي، شملت مدينة الأبيض العديد من المجالس في منطقة شمال كردفان كما هو موضح أدناه:

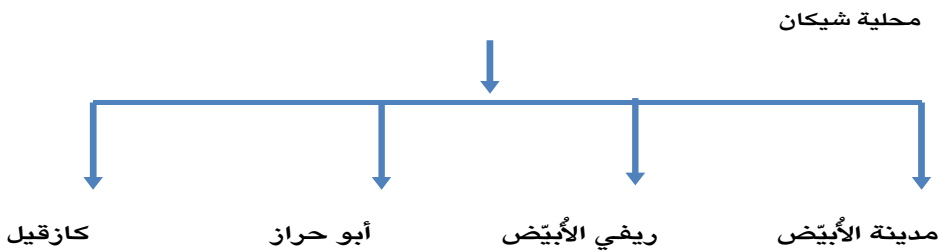
مجالس شمال كردفان:



والشكل التالي يوضح مجاس وسط كردفان:



وبعد إقرار نظام المحليات، تم تقسيم مدينة الأبيض إلى أربع محليات تحت مسمى محلية شيكان كما هو موضح أدناه:



النشاط الاقتصادي:

تعتبر الأبيض من أهم مراكز العمران السودانية، فقد لعبت دوراً كبيراً في النشاط التجاري لغربي السودان الذي يعتبر أهم مناطق الإنتاج الاقتصادي. إذ إن الأبيض مركزها التجاري كمصب لإنتاج الغرب المتمثل في الصمغ العربي والقطن والحبوب مثل السمسم والفلو السوداني، وفي نفس الوقت فهي سوق لتجارة الماشية والإبل والأغنام. وهي أيضاً العاصمة الإدارية في هذا الجزء من القطر. وظهرت أهميتها بعد أن اتخذها الأتراك مركزاً إدارياً لهم وأصبحت مركزاً تجارياً تتجمع فيه التجارة من كل أجزاء الغرب المختلفة مثل جلود الحيوانات التي كانت تشتري من البقارة، وشن الفيل من أرض الشك في أعالي النيل بالإضافة إلى بعض الذهب وهي التجارة التي اهتم بها الأتراك في هذه المنطقة.⁽¹²⁾

الأحياء:

القبة، حي البترول، حي فلاتة (الهوسا)، الشهداء، فلسطين، الصحافة، صالحين، الدوحة، الشارقة، المطار، أمير، القلعة، كريمة، السوق.

الأسواق:

يوجد في الأبيض العديد من الأسواق الكبيرة مثل سوق المحاصيل، السوق الكبير ويضم في داخله أفرع كثيرة أشهرها سوق عبد الله بن مسعود الشهير بسوق أبو جهل وسوق فور وسوق كريمة وسوق الصالحين وسوق أبوشراء وسوق الناقة، بالإضافة إلى بعض الأسواق الصغيرة الموجودة داخل الأحياء.

دور العبادة:

يوجد في مدينة الأبيض العديد من المساجد الكبيرة أشهرها المسجد الكبير الذي يقع في الناحية الغربية من السوق، بالإضافة إلى العديد من المساجد داخل الأحياء السكنية، كما توجد العديد من الكنائس العريقة خاصة في وسط المدينة.

المناطق الأثرية والسياحية:

أشهرها غابة شيكان وسوق المحاصيل وسوق أبو جهل (عبد الله بن مسعود، ومتحف شيكان وسوق الناقة ومحطات تخزين المياه.

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة توصل الباحث، إلى أن مدينة الأبيض نشأت عن طريق الصدفة، وتطورت من محطة التقاء للمسافرين والعابرين إلى قرية، ثم مدينة، وهي تعتبر من أعظم المدن السودانية من كل الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والاستراتيجية والسياحية إلخ ...

الهوامش:

- (1) تخطيط المدن/4/1/4، دار الوثائق القومية.
- (2) سمير أحمد محمد الحسن، مدينة الأبيض دراسة في جغرافية المدن، جامعة عين الشمس ، ماجستير، 1979م، ص 11.
- (3) المرجع نفسه ، ص 12.
- (4) عبد الله حامد العبادي، المرجع السابق، ص 101.
- (5) سمير أحمد محمد الحسن المرجع السابق، ص 9 – 10.
- (6) المرجع نفسه ، ص 27.
- (7) المرجع نفسه ، ص 9 – 10.
- (8) المرجع نفسه ، ص 8 – 97.
- (9) صلاح الدين الشامي، السودان دراسة جغرافية، منشأة المعارف، الطبعة الثانية، 1973، ص 64.
- (10) الإحصاء القومي، 2008م، دار الوثائق القومية
- (11) دار الوثائق ، التقرير النهائي لجنة إعادة النظر في تقسيم المديريات
- (12) المصدر نفسه

الملاحق



مسجد مدينة الأبيض الكبير



مسجد في وسط المدينة



كنيسة مدينة الأبيض



كنيسة في الأبيض



جانب من متحف شيكان بمدينة الأبيض



متحف شيكان



سوق الأبيض



جانب من سوق الأبيض